النبوغ المغربي

في الأدب العربي

النبوغ المغربي

في الأدب العربي

تأليف

عبد الله كنون

الجزء الأول

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب

لما ألفتُ هذا الكتاب ، لم أكن أهدفُ به الى تمييز أدب المغرب بميزةٍ ليست في الأدب العربي العام ، ولا الى تخصيصه ببحث مستقل يجعله في نظر المغاربة أو غيرهم كتاباً خاصاً بأدب قطر من أقطار العروبة على حِدَته ، وانما كان مقصودي الأهم من تأليفه ، هو بيان اللَّبنَة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي الذي تعاونت على بنائه أقطارُ العروبة كلُّها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يُقصّروا عن إخوانهم من المشارقة ومغاربة بقيّة أقطار المغرب العربي في العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم .

وذلك لأني رأيت منذ نشأتي الأولى إهمالَ هذا الجزء من بلاد العروبة في كتب الأدب وكتُب تاريخ الأدب ، حتى لقد تُذكر تونس والجزائر ، وبالحرَى القيروان وتِلمسان فضلاً عن قرطبة واشبيلية ، ولا تُذكرُ فاس ومرّاكش بحال من الأحوال . وظننتُ أولاً أن ليس لبلادي في هذا المجال مشاركة ، وإنما حسبُها ميادينُ البطولة والجهاد والفتح ، ولذلك لا يسعُ المؤرخين وكتّاب التراجم الا أن ينوهوا بشخصيات يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي ، ويعقوب المنصور ، وأبي الحسن المريني ، وأضرابهم من أبطال المعارك وأرباب الحكم والسلطان ، ويُثنوا على أعمالهم ومساعيهم في خدمة الاسلام ، وتوطيد دولته ؛ في حين أنهم لا يُعيرون اهتماماً لرجال العلم والأدب ، ولا يُعرّجون على ما كان لهذا الوطن العزيز من صَولة في عالم الفكر ومَيدان العِرفان .

ثم لما بحثتُ ونقبتُ ، وجدتُ كنوزاً عظيمة من أدبٍ لا يقصُر في مادّته عن أدب أيّ قطر من الأقطار العربية الأخرى ، وشخصياتٍ علميّة وأدبيّة لها في مجالي

الانتاج والتفكير مقامٌ رفيع . ولكنَّ الاهمال قد عفّى على ذلك كله ، وعدمَ الاهتمام بجمعه في كتاب ، والتّنبيه عليه في خطاب أدّى الى وأدِه ، فاحتاج الى من يبعثُه من مرقده .

وقد شمّرتُ عن ساعد جِدّي ، وأنا يافِع لم يَبقَل بعدُ عارضي ، فتتبعت جميعَ ما وصلت اليه يدي من آثار أدبية مغربيّة ، وأخبار عن أدباء المغرب وعلمائه ، ممّا وقفتُ عليه في الكتب والأوراق والمحافظ ، أو تلقّفته من أفواه المشائخ والأدباء والأقران ، وجمعتُ ذلك كلّه في كتاب النبوغ ودفعتُ به الى المطبعة منذ بضع وعشرين سنة ، لعلّي أرفعُ الضيمَ عن بلادي ، وأُثبتُ مركزها في حظيرة العلم والأدب ، على ما هو عليه مركزها في السياسة والحرب أو أعظمَ .

ولقد وُفّقتُ الى ما أردتُ أو بعضٍ مما أردتُ ، على ضعف وسائلي المادية والأدبية في ذلك الحين ، فكان للكتاب صدًى بعيدٌ في الداخل والخارج ، نبّه الزُملاء والناشئين بعدُ الى العناية بهذه الناحية من تاريخهم ، وأثارَ اهتمام الباحثين والمَعْنيّين بهذه الشؤون في الشرق والغرب، حتى قال فيه أميرُ البيان المرحوم الأمير شكيب أرسلان « ان من لم يقرأه فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي » وصار العلامة الأستاذ كارل بروكلمان ، الحجةُ في تاريخ الأدب العربي يعتمده في مُلحقات كتابه العظيم ، عن تاريخ هذا الأدب . ولا يُمكِنُني في هذه العُجالة أن أستوعِبَ أسماءَ جميع الأدباء والكُتّاب الذين تناولوه بالنقد والتقريظ في مُختَلِف الصحف والمجلات منذ صدوره الى الان . ولكني أُشير الى إقرار العالم الايطالي الشهير جيوفاني بيانكي في مقال له بمجلة الشرق الحديث[1] عن الكتاب «بإبرازه للمساهمة التي أبداها المغرب في الآداب العربية،تلك المساهمة التي أهملتْ حتى اليوم ، ولم تُقدَّر كما كان ينبغي » وهذه هي الغاية التي من أجلها الفتُ النبوغ . وكذلك أشير الى ما جاء في مقال عنه للدكتور محسن جمال الدين ، نُشِر بمجلة الأديب البيروتية منذ عهد قريب[2] وهو قوله : « ان فضيلة هذا الكتاب في أنه يختص بدراسةِ

١ – انظر ترجمته في مجلة العالم العربي (عدد اول سنة ثانية) بقلم المستشرق « اميليو بوسي » ، وكان الكاتب اطّلع على الترجمة الاسبانية للكتاب .

٢ – عدد سبتمبر ١٩٥٨

أدب بلاد المغرب الأقصى وتاريخه ويستخرج النصوص من خزائنهـا النادرة ، ذات المخطوطات النفيسة ، ويعرِضُ لنا نماذَجها الحسنة . ودراسةِ شخصياتها المعتبرة ، وهو بعيد عن ابتـذال القول وضعف الرأي ... والذي يدرس منا كتاب « النبوغ المغربي » فستُدهِشُه هذه الوفرة الزاخرة من اسماء الرجال والمؤلفات والنصوص ، ويتأكد بعدها أن أغلب أصحاب حِرْفة الأدب عندنا أو حَمَلَة العلم في جامعاتنا ، لم يسمعوا بها أو يقتنوا من آثارها ، أو يحفظوا بعض أشعارها ونثرهـا ، وما عملُ المؤلف المفضال ، والصديق الكريم الا صيْحَةً داويةً ، ودعوةً حارَّة ، وَغرْساً مُثْمِراً لجيله الحاضر ، ولأجيالنا القادمة في الوطن العربي كافةً ، وفي عالم الحضارة العالمية الواسعة » وهذا وصفٌ للمجهود الطائل الذي بذَلَتْه في تأليف النبوغ ، بقلم استاذ جامعي يعرِف قيمةَ البُحوث المبتكرة التي لم تُنْسَجْ على منوال سابق .

وكان المرحوم الاستـاذ سعيد حِجّي يُعلِنُ عنه في جريـدة المغرب عند صدوره بهذه العبارات « حادث خطير في تاريخ المغرب ، ظهورُ كتـاب النبوغ المغربي في الأدب العربي ، أول كتاب من نوعه ، وأوفاهُ في موضوعه » ، وألقى بأحد نوادي سلا محاضرةً عنه بعنوان (خطوة عظيمة في تاريخ الفكر المغربي) نشرها في العدد الثامن وما بعده من الملحق الثقافي لجريدة المغرب .

ثم كانت موافقةً عجيبةً أن أُعلِنَ في مصر عن جائزة للدولة قدرهـا خمسمائة (٥٠٠) جنيه ، خُصِّصَتْ لمن يؤلف عن الأدب العربي في القطر المصري ، من الفتح الاسلامي الى العصر الحاضر .. فكتب الأستاذ حِجّي مُعلـِّقاً على هذا النبأ بالملحق المذكور ما يلي : « من حُسن الصُّدَف أن تهتم وزارة معارف مصر بوضع جوائز عن الأدب المصري في الماضي ، في نفس الأسبوع الذي يصدر فيه كتاب مغربي عن الأدب المغربي في ذلك الماضي ، فيكون المغرب أسبق الى تلك المفخرة من كل الأمم الناطقة بالضاد ولكن يجب أن نتساءَل ماذا ينالُ مؤلفنا من تقـدير ادارة العلوم والمعارف ، وما يستحقـه من تشجيع من جمهـور المثقفين ؟ فنحن نُهيبُ بتلك الادارة الى الاهتمام بهذا المؤلـِّف الحافل ، ونرجو أن تشتري منه بضع مئات من النسخ تقديراً لمجهودات مؤلفـه الثمينة ، وتشجيعاً لمثل هـذه المباحث القيمة . » وقد كان الجوابُ على هذا النّداء النبيل هو صُدورُ قرار عسكري بمَنْعِ رَواج الكتاب ، ومُعاقبةِ من تُضْبَط عنده نسخة منه . ونصُّ ما كتبتْه جريدة السعادة ،

لسانُ حال حكومة الحماية ، بعددها رقم ٤٥٩٢ في هذا الصَّدَد تحت عنوان بلاغ عسكري (أصدر سعادةُ الجنرال خليفةُ سعادة القائد الأعلى للجنود بالنيابة أمراً يقضي بمنع الكتاب المُعنْوَن بالنبوغ المغربي في الأدب العربي الصّادر باللغة العربية في تطوان من الدُّخُول الى المنطقة الفرنسية بالمغرب الأقصى ، وكذلك بيعه وعرضه وتوزيعه ، ومن خالف ذلك يُعاقبُ بمقتضى القوانين المقرَّرة » . .

واذا كان لهذا القرار دَلالةٌ فهي تأكيدُه لكون الكتاب عملاً وطنيا فوق كونه عملاً أدبياً ولذلك استحق أن يحظَى من الاستعمار الفرنسي الغاشم بهذا الجزاء الظالم . . وكان أنْ ثارتْ ثائرةُ الصحف الوطنية بتطوان ضد هذا التدخل العسكري الاستبدادي في شؤون الفكر والثقافة ، فكتبت كل من جريدة « الحرية » وجريدة « الوحدة المغربية » مقالات نارية تنتقد فيها القرار المذكور وتُندِّد بالحريّة الفرنسيّة المزعومة ، مما جعل الصحافة الاستعمارية تُصاب بالسُّعار ، فتصُبُّ جامَ غضبِها على الوطنية المغربية عموماً ، وتخصُّني بحملات عدائية انتهزها الأذنابُ والمنافقون ، فلم يقصروا في الأذى والضرر .

ومن الانصاف أن أقول ان هذا كان في الجنوب أو المنطقة السلطانيّة إذ ذاك . وأما في الشمال أو المنطقة الخليفيه ، فقد تلُقّي الكتاب بقبول حسن من لدن السلطة ، واقتنت منه ادارة المعارف كميّةً من النسخ ، ووزَّعتها على المكتبات والمعاهد في المنطقة . ثم لما تُرجِمَ إلى الاسبانية بمعرفة الاستاذين خيرُونيمُو كريُو أورد ونيز ومحمد تاج الدين بوزيد ، قابلته المحافلُ الأدبية في أسبانيا بمزيد من التقريظ والتقدير ، وبلغ الأمر أن وصلتني رسالة من وزارة الخارجية الاسبانية بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ تعلِمني بان وزارة المعارف العمومية لهذه البلاد ، قد منحتني درجة دكتوراه شرف للآداب من جامعة مدريد بمناسبة صدور كتابي النبوغ المغربي في ترجمته الاسبانية،وتدعوني الى زيارة اسبانيا في رحلة تستغرق شهراً علىنفقة الحكومة . وجاءت هذه التحية الكريمة في الوقت المناسب ، فمحَتْ من نفسي آثار المعاملة السيئة التي عومل بها الكتاب من السلطات الفرنسية وعُملائها ، ورددتُ الجواب بالشكر وعِرْفان الجميل ولكني أجّلتُ السفر الى أن يشاء الله تجنُّباً للقِيل والقال .

هذه قصةُ كتاب النبوغ المغربي باختصار ، من لدن التفكير في وضعه وجمعه ،

الى ما بعد طبعه ومنعه . والآن وقد مرت على ظهور طبعته الأولى هذه المدةُ الطويلة ، وكثر الطلب عليه من مختلف الجهات وخصوصاً بعد استقلال المغرب ، وتوجُّه الأنظار الى هذه البلاد التي كانت محاطةً بستار حديدي من نظام الحماية ، يمنع الاتصال بينها وبين شقيقاتها العربيات ، والأوطانِ الاسلامية الأخرى ، وسائر العالم الحر ، فان الحاجة أصبحت جِدَّ ماسَّة إلى إعادة طبعه ، وتقديمه وثيقةً وسنداً الى جميع هؤلاء الذين يهمهم الوقوف على تاريخ المغرب الفكري وماضيه الحضاري . ولكن بعد مراجعته طبعاً وتجديد النظر في محتوياته من مادة وفكرة وترتيب ، ضرورةَ أنَّ المعلومات التي كانت لدينا زمنَ تأليفه هي غيرُ المعلومات الآن ، والتفكيرُ وسائر وسائل العمل ، قد تطورت بتطور الزمن ، فلم يكن بُدّ من ادخال تعديل جوهري عليه يتلخص فيما يلي :

أولاً — اضافة المواد الجديدة التي وقفنا عليها بعدُ ، سواء فيما يرجع الى تراجم الأشخاص أو الآثار الأدبية ، أو الدراسات الموضوعية التي تناولناها في مُختَلِف العصور ، فقد ظهرت في عالم الطباعة كتب مهمة لها اتصال وثيق بموضوعنا كمجموعتي رسائل موحدية ، ورسائل سعدية ، ورابع البيان المغرب لابن عذاري ، ومُغرِب ابن سعيد ، والغصون اليانعة ، ورايات المبرّزين له ، واطّلعنا على الحماسة المغربية للجرّاوي ، ونثير الجُمَان لابن الأحمر والمدارِك للقاضي عياض ، ورحلةِ ابن رُشَيد ، وغير ذلك من المخطوطات النادرة التي تحتوي على موادَّ أساسية في الموضوع كان من الضروري أن تُضاف الى أماكنها وتُكمّل عناصر البحث .

ثانياً — تصحيح بعض الأغلاط التي وقعت لنا في كتابة بعض التراجم ، ونسبة بعض الآثار الأدبيّة والعلميّة لغير مَن هي له ، والحكم في بعض المسائل بما ظهر لنا خلافه وما الى ذلك . ويُقوّي الداعيَ الى هذا التصحيح أننا رأينا الذين كتبوا في موضوع الأدب المغربي يقلّدوننا في تلك الأغلاط ، سواء الذي صرّح منهم باعتبار النبوغ من مراجعِه ، والذي لم يُصرّح بذلك ، وهو أمر مؤسف يدلُّ على ضعف الهمَم ، وكلال العزائم ، في الذين تصدّوا حتى الآن لهذا البحث ، على الرغم من تيسير صِعَابه ، وتذليل عِقابه . ولذلك كان لزاماً علينا أن نُبادِرَ بتصحيح كلّ غلط من هذا القبيل ولو للمحافظة على هذه الثقة (العمياء) التي وضعها فينا الزملاء الكرام.

ثالثاً – تحرير بعض الفصول من التأثير السياسي ، والعاطفي الذي كتِبَت به ، نتيجةً لما كان المغرب يمرُّ فيه من ظروف سياسيّة ، وأحوال اجتماعيّة مُعاكِسَة لطامحه العليا ، وآماله الكبرى ، في الوحدة والاستقلال ، والتطور داخلَ إطار العروبة والاسلام .. ومن أخطر ذلك السياسة البربرية التي انتهجها الاستعمار الفرنسي للتفرقة بين عناصر المواطنين المغاربة ، وتأليب بعضهم على بعض أخذاً بمبدأ فرّق تَسُدْ .. فكان الكتاب كلما سنحت الفرصة ، يحملُ على هذه السياسة حملةً شعواء ، ويوجّه القارىء المغربي في الاتجاه السليم المجافي لهذه العنصريّة المقيتة ، والذي هو الحقُّ والصواب ، فالآن لمّا شالتْ نعامة الاستعمار ، وفشلت سياستُه في هذا الصّدد ، لم يبق موجبٌ لذلك التوجيه ، أو على الأقل للّهجة الشديدة التي كتِبَ بها ذلك التوجيه .

رابعاً – تحوير في التصميم الذي وُضِعَ عليه الكتاب ، فنحن لقلّة المعلومات التي كانت عندنا عن العصر المرابطي أو لضُعفِ استعدادنا في استخراج هذه المعلومات من تضاعيف الكتب والمراجع العامة ، كنا أدمجنا هذا العصر في العصر الموحدي . والآن وقد توفّرت لدينا معلومات قيمة عن المرابطين وعهدِهم، فصَلْنا عصرَهم عن عصر الموحدين ، وخصّصناه بدراسات مهمة عن الاتجاه السياسي ، والحركة العلميّة ، والحياة الأدبيّة ، وميّزناه بخصائصه التي ينفردُ بها عن العصرالموحدي. وبالطبع فقد خلّصنا هذا العصر أيضاً من الاشتباكات التي كانت تجمع بينه وبين العصر المرابطي ، لمّا كانا مُتداخلَين ؛ وبذلك نكون قد أعدْنا كتابة العصر الموحدي من جديد ، كما أننا كتَبْنا العصرَ المرابطي كله ابتداءً .

ويُضَافُ الى هذا التّحْوير تقسيمُ الكتاب الى ثلاثة أجزاء ، فالجزءُ الأول للدّراسات ، والثاني للمُنْتَخَبات النّثْرية ، والثالث المُنتخبات الشعرية ، وقد كان قَبْلُ مُقسّماً الى جزئين فقط يجمع الجزءُ الثاني بين دفّتَيْه المنتخبات الشعرية والنّثرية معاً .

والى هذا فقد أضفنا زِيادات كثيرة الى غالب الفصول ، وخاصّة فيما يتعلّق بنهضة الفنون ومُشارَكة المرأة في مختلف مجالات النشاط الفِكْري للشّعب . وبعضُ الكلمات في هذا الصّدَد ، وهي جُهْدُ مقلّ ، تفوق ما كُتِبَ بشأنه في بعض التواريخ العامّة الأدب العربي جملةً .

ولا حاجة بي إلى القول إنّ روح البحث المجرّد التي سيطرت على الكتاب في طبعته الأولى هي التي تتقمّصه في طبعته الثانية ، وأن التثبت والتحرّي وعدم إلقاء الكلام على عواهنه ، هي الموازين القسط التي تحكّمت في كل جملة من جمله ، إن لم أبالغ فأقول في كل كلمة من كلماته . ومع ذلك فما أبرّئه من نقص ، ولا أحاشيه من خطأ ، لعلمي بأن الكمال لله . وأن العصمة لا تكون الا لنبيّ . والله المسؤول أن يكسوه حلل القبول ، وأن يجعله سادّاً للفراغ الذي يشعر به الجميع في هذا الباب « ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكنّ الله يُزكّي من يشاء ، والله سميعٌ عليم » .

طنجة في ربيع الثاني ١٣٨٠
وأكتوبر ١٩٦٠

عبدالله كنون الحسني

عرض وتحليل

عرض وتحليل

بقلم المرحوم الأمير شكيب أرسلان

كتب أمير البيان الأمير شكيب أرسلان رحمه الله بحثاً مستوفى عن كتاب النبوغ المغربي حين صدوره في صورة عرض وتحليل . ونحن نثبت هنا القسمين المنشورين منه بجريدة « الوحدة المغربية » الغراء الصادرة بمدينة تطوان في عددها ٢٢٤ و ٢٣٤ المؤرخين في ٤ صفر و ٢٩ ربيع الثاني ١٣٦١ ، ونقدمها بين يدي الكتاب تتويجاً له وتحلية :

١

قرأتُ الجزء الأول من هذا الكتاب المُمْتِع الذي أخرجه للناس فذّاً في بابه السيد الشريف ، والعلامة الغطريف الأستاذ عبدالله كنون من مفاخر القطر المغربي في دوْرنا الحالي . وقد كنتُ أعهد نفسي من بين المشارقة ، الرجل الذي اطّلع أكثر من غيره في تاريخ المغرب وأهله ، وأنعم النظر فيما يتعلق بثقافته وسياسته وسائر شؤونه ؛ ولكني رأيتُ نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب الصغيرَ حجْمُه ، الكبير قدْره كأني لم أعلم عن المغرب قليلاً ولا كثيراً ، وكدتُ أقول إن مَن لم يطّلع على هذا الكتاب لا يحِقُّ له أن يدّعي في تاريخ المغرب الأدبي علماً ، ولا أن يُصدر على حركاته الفكرية حُكماً . وكما قيل في كتاب « نفح الطيب » للعلامة المقري أنه كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وكلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الذي من لم يقرأه فليس بأديب ، يمكنُ أن يقال إن من لم يقرأ كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي » فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي ؛ بل هذا الكتاب في موضوعه أجدر بالاطلاق الشامل من كتاب « نفح الطيب » في موضوعه ؛ وذلك بأن نفح الطيب على جلالة قدره حشر بين دفّتيه غثّاً وسميناً ، وعالياً ونازلاً ، وأطال حيث ينبغي الاختصار ، وأوجز حيثُ النفوس تشتاق الى

الاطالة والاكثار . وأيضاً فقد يكون الأديب أديباً ولم يقرأ « نفح الطيب » ، فأما « النبوغ المغربي في الأدب العربي » فهو خلاصة مَنْخولة ، وزُبْدة ممخوضة ، استخلصها صاحبها من مئات الكتب المصنّفة ، وألوف من الأحاديث التي لـَقِفَها من أفواه العلماء الذين أخذ عنهم ، وقلما رأيتُ مؤلفاً جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل، وجاء في ضمن ٢٥٠ صفحة بالعريض الطويل في درجة هذا التأليف الذي هو ثمرة تحقيق وتدقيق ، ودرس عميق لم يخرج الى قراء العربية أحسن منه في بابه .

أشار العلامة مصنف «النبوغ العربي» في مقدمة كتابه الى جمعه فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة ، والى تصويره الحياة الفكرية في المغرب ، من لدن قدوم الفاتح الأول الى يوم الناس هذا، ولـَعَمْري إن من قرأ هذا الوعدَ الذي جزم به المؤلف اعتقد في البدء أنه بالغَ فيه جدّاً ، وحمّل نفسه إدّاً ، وزعم الإحاطة بموضوع تعجِز عنه الجملة ، ولا تفي به الكتب الجَمَّة ، وادَّعى فتحَ مغالِقَ تنُوءُ مفاتِحُها بالعُصْبة . إلا أنه عندما يبدأ القارىء بالمطالعة ، يجد المؤلف قد وعد فانجز ، وقرب الأقصى بلفظ مُوجز ، وكان فعله محققاً لقوله ، وقد مزج في كتابه بين الحركات الفكرية والحركات السياسيّة مزْجاً عجيباً ، حقّق فيه الصلة الطبيعية التي لا تكاد تنفك في كل دَوْر من أدوار الأمم بين العلم والسياسة ، بحيثُ لا يرقى الواحد منها إلا رقي الآخر برُقيّه كاللازم والملزوم . وهو وإن لم يكن توخّى ذكر الفتوحات والمغازي ، ولا حاولَ استقصاء مآثر السيف في جانب مآثر القلم ، فقد ضمَّن في تضاعيف كلامه على تطور الحركات العقليّة في المغرب من لَدُن الفتح العربي الى الآن ، لمحة دالّةً يفهم منها القارىء تطور السياسة وتعاقب الدول المختلفة التي سادت المغرب من ذلك اليوم الى الآن ، فلا يسير المطالع لهذا الكتاب إلا على ضوء من أول الكتاب إلى آخره ، ولا يكادُ يُشكِلُ عليه فيه مسألة ، ولا يستعجمُ موضوع ، ولا يفتقر مقامٌ الى مقال . وهو مع هذا كله من الكتب المختصرة ، فكأنما أراد به صاحبه لا مثالاً للتاريخ فحسب ، بل مثالاً للبلاغة .

ومن أول ما شغل المؤلف به ذهن القارىء قضيّة خفاء الأدب المغربي على المشارقة ، وإنكار كثير من هؤلاء لكثير من مزايا إخوانهم المغاربة . وهو غيرُ ملوم في الاحتفال بهذه القضية ، وفي كونه نصَّ عليها في أول كتابه ، لأن للمغاربة حقاً

في المطالبة بمكانهم في الأدب العربي الذي هم من جملة حَمَلة ألويتِه ، بل من نخبة عُمّار أنديته ، ولكن الأمر على حد ما قال الشاعر :

والنَّجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيته والذنبُ للطَّرْف لا للنجم في الصغر

فالمشارقة الذين يعزُو إليهم إخوانهم المغاربة جهل مقامهم في الادب ليس منهم واحدٌ يلزُّ في جملة العلماء المحققين ، وانما هم من صغار المتأدبة الذين علموا شيئاً وغابت عنهم اشياء . ولم تكن قبل اليوم علاقاتُ العالم بعضها ببعض كما هي في هذا العصر ، الذي جعلت فيه الاختراعات العلمية ومظاهر أسرار الكهربائيّة ، القاصي قريباً والمجهول معلوماً والبلدان النائية بلداً يكاد يكون واحداً ، والأسفار المشتطة سفراً قاصدا . وقد كان المغرب من قبل في زاويةٍ من الأرض ليس وراءها الى الغرب سوى بحر الظلمات . نعم لم يزل المغرب كما كان من الجهة الجغرافية ، ولكنه أصبح اليوم قريباً بالباخرة والطائرة ، والسِّلْكي واللاَّسِلْكي والهاتف والراديو ؛ فصار الشرقيُّ يعرفُ عن المغرب وأهله في اليوم الواحد ما لم يكن يعرفه في السنة بطولها . فالان إذا جهل الشرقي أحوال المغرب وعميت عليه مآثره ، يكون جديرا باللوم ، وحقيقاً بالرثاء لقصور معارفه . فأما عمّا مضى فلا يتوجه اللوم وأسبابُ الاتصال قليلة ، ووسائل التعارف محدودة .

ولا تنسَ الانحطاط الذي طرأ على العالم الاسلامي شرقيّه وغربيّه ، فانه في مقدمة أسباب جهل بعض أجزائه بأحوال البعض الآخر . ولا تنسَ أيضاً تكالب الاستعمار الأوربي ، وكون أهمّ شروطه الفصل والقطع والضرب بالأسداد بين البلاد المستعمَرة وأخواتها ، والأمم المستضعفة ومن تمتُّ اليهم بصلة دين أو نسب أو لغة . فهذا كله جعل أمور المغرب مجهولةً عند غير المحققين من أهل الشرق . ولو كان الاستقلال السياسي موفوراً للعالم الاسلامي ، لمَا وقع من التجاهل والتناكر هذا الذي وقع أخيراً وجعل الأخ لا يعرف شيئاً عن أحوال أخيه ؛ فقد عهدنا عندما كان الاسلامُ اسلاماً ، وكانت الرجال رجالاً أن الحركات الفكريّة إذا شاعت في المشرق شاعت في المغرب ، وإذا نبغ شاعر أو كاتب في أحدهما تناقل الناسُ أقواله للآخر ، واذا كتب الإمام الغزالي كتاباً في أقصى الشرق تدارسهُ الفقهاء في أقصى الغرب ، وعمِلَ به الموحدون والغزالي بعدُ في الحياة . وإذا ألّف سعدُ الدين التّفتازاني كتاباً في خُراسان أو ما يليها تكلّم عليه ابنُ خلدون في فاس أو تونس في عُرض كلامه على مَلَكة المشارقة في العلوم العقليّة ، والتفتازاني لا يزال حيّاً . واذا ألّف ابن هشام كتاباً في النحو وهو

في مصر ، ولم تكن المطبعة قد عُرِفت يومئذٍ ، لم تمضِ أشهرٌ حتى امتلأت أسواق الورّاقين في مدن المغرب بنُسخ هذا الكتاب وابنُ هشام يومئذ حيّ ؛ وجعله مثل ابن خلدون موضوعاً في مقدمته لذكر ملكة المتأخرين في علوم العربيّة ، وهَلمّ جرّاً . فالرُّقيُّ الفكري متّصِلٌ بالاستقلال السياسي اتصال النتيجة بالمقدّمة . ولقد فُقدت في الأدوار الأخيرة من العالم الاسلامي أسبابُ الاتصال بما طرأ من التفكُّك ، ومصير بلاد الاسلام طرائقَ قِدداً ، تليها دولٌ مختلفة ، أكثرها خارج عن الاسلام ، بل أكثرها عدوٌّ للاسلام كاشحٌ يعمل لمحوه من الدنيا . ومن المعلوم أنه لا يعمل للاسلام غيرُ دول الاسلام نفسِها ، فلا عجَب بعد هذا أن يجهل بعضُنا مكانَ بعض وأثرَ بعض ؛ بل العجبُ أن تعلم اليدُ اليمنى باليد اليسرى ونحن على ما نحن عليه من تفكك الأجزاء وتقطُّع الأوصال ، والسياسة كما قلنا هي والأدب شريكا عِنَان ، وفرَسا رِهَان .

وقد أصاب الأستاذُ صاحب « النبوغ المغربي » في عدم إطلاقه القول على المشارقة أنهم جاهلون بأقدار المغرب ، فانه قيَّدَ ذلك بقوله « انكار كثير من المشارقة لكثير من مزايا المغاربة » وفي هذا القيد قد أخرَج محرِّر هذه السطور من هذه الجملة الخاسرة ، فاني على ما بي من قصورٍ وتقصير ، وعيوبٍ تضيقُ فيها المعاذير ، أقدِرُ أن أدَّعي بحقٍّ سبقَ غيري من جميع العالم العربي الى معرفة مزايا المغرب وأهلِه ، وإيجاب عَدمِ التفرقة بحال من الأحوال بين مغرب ومشرق ، أقول هذا من باب التحدث بنعمة الله .

٢

عالج السيد عبدالله كنون في صدر كتابه هذا حادثين جليلين هما من أهم حوادث الفتح الاسلامي في العالم ، وهما إسلامُ البربر ، هذه الأمة العظيمة التي لولا دخولها في الاسلام لكانت بلاد شماليّ افريقيا كلها أقطاراً معادية للاسلام ، مُناوئة للعروبة بخلاف ما هي عليه الآن من الاعتصام بهما وتكوينهما جزءا لا ينفكُّ من أجزاء العالم الاسلامي ولا يقلُّ شأناً فيه عن مصر والشام وجزيرة العرب والأناضول وفارس وهلمَّ جرّا ؛ بل حصناً منعاً تتكسر على جوانبه هجمات الأمم التي لا تطيق وجود الاسلام في الأرض . وكذلك حادثُ استعراب البربر الذين أصبحوا بتأثير الدين